خمس عشرة سنة [1] ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً »

وفي الجزء التالي سننشر تتمة هذا التمهيد الذي نبسط فيه تاريخ صلات الجامعة بالاستاذ ثم ننتقل الى النظر في مبادئه وارائه واعماله وصفاته ونقارن بينها وبين مبادىء استاذه جمال الدين

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

حب روسو ومدام وارين

(زيارة صاحب الجامعة بيتها في شمبيري)

الذي ابتاعته الحكومة وجعلته مزاراً عمومياً يقصده السياح من اوروبا واميركا

سياحة صاحب الجامعة لقد شاهدت في سياحتي من الاسكندرية الى نيويورك مشاهد عظيمة ورأيت اموراً بديعة وخطر لي في اثنائها افكار كثيرة الا ان فكري لم يسترح بعد لتقييدها وتسطيرها على صفحات الاوراق . فقد زرت في سياحتي هذه مرسيليا ومعرضها الاستعماري العام وشاهدت الاقسام المراكشية والجزائرية والتونسية فيه . ثم زرت باريز وليون وكرنوبل وشمبيري وفالانس وكيلوس وحمامات اكس . وقد قطعت مقاطعة السافوى البديعة التي هي درة في عقد البلاد الفرنسوية من اقصاها الى اقصاها . ومررت فيها بين مضائق جبال الالب البديعة وسط تساقط المطر ولذع البرد وخرير الانهار وصفير البخار . فكنت في القطار كالماً خوذ انتقل من نافذة الى نافذة وانا اقول : هذه جنة الله في الارض . واحياناً اتعمد نسيان نفسي في القطار فجرى بي مرة عشرين ساعة وانا الاحظ البلاد كأنها بانوراما تنبسط امامي الى ما شاء الله وادرس احوال الناس

---

(١) لما نشر هذا الرأي في الجامعة واطلع عليه احد جواسيس الاستانة جاء يسالنا (الا تظنون ان محمد عبده يريد بهذه المدة « ١٥ سنة » المدة التي مرّت على ملك جلالة السلطان) فضحكنا وقلنا له (اذهب واستنطقه ولا تستنطقنا)

الذين يركبون القطار معي من محطة الى محطة . اما باريز فحدث عنها ولا حرج . فقد وفقني الله فيها الى صديقين اطلعاني منها في اسبوع واحد على امور ما كنت لاطلع عليها وحدي في شهر . فمتى كتبتُ هذه السياحة التي استغرقت شهرًا تقريبًا وجد فيها القارئ من المعلومات المفيدة والملاحظات الاجتماعية والطبيعية والادبية ما يلذّ ويفيد . وحسبك نوادر وحوادث السفر في الباخرتين من الاسكندرية الى مرسيليا ومن الهافر الى نيويورك . وسابدأ بها في الجزء التالي

اما الان فاقتصر في هذا الفصل على زيارتي لبلدة شمبيري التي هي من اهم حوادث سفري وقد قصدتها خاصةً مع انها تبعد ٥٩٢ كيلومترًا عن باريز

عهد منذ ١٥ سنة قال الفيلسوف تولستوي لبعض محدّثيه : كنت في شبابي اعتبر جان جاك روسو الهًا واعبده عبادة . وقد علقت صورته بعنقي كما تعلّق صور القديسين . قلتُ وقد اولعت في زمن الشباب — وهو زمن صرتُ اراه بعيدًا وان لم يكن ببعيد — بمطالعة كتب روسو ولعًا شديدًا . ولما قرأت كتابه « الاعتراف » ورأيت فيه وصفه لبلدة شمبيري ومعيشته في بيت فيها هو وحبيبته مدام دي وارين وبسطه قصته معها ببلاغة كبلاغة الآلهة تحركت نفسي شوقًا الى ذلك الوادي والحرش والبيت الذي وصفه المؤلف وقلت في نفسي انني عند اول مرة تطأ فيها قدمي ارضَ فرنسا ساقصد بدون شك بلدة شمبيري لزيارتها وزيارة الوادي الذي عاش روسو فيه مع حبيبته . فهناك مصدر الغزل والحب والشعر . هناك الحرَم المقدس الذي لجأ اليه الفتى روسو من مصائب الدهر فوجد فيه نفسًا كبيرة في جسم امرأة ناشزة خرجت عن الطريق القويم فاستمدّ كبر نفسه من نفسها وعظمته من عظمتها . فكوّنت معيشته معها بين الاحراش والازهار في وسط الطبيعة بمعزل عن الناس روحه تكوينًا جديدًا وجعلتها كما ظهرت بعد ذلك في كتبه التي قلبت وجه العالم وغيرت افكار البشر في الارض لان انفجار الثورة الفرنسوية يُعزى اليه

شمبيري شمبيري بلدة عدد سكانها اليوم ٢٢ الف نفس وهي مركز مقاطعة السافوى . ومقاطعة السافوى هذه كانت من قبل ملكًا لعائلة سافوى المالكة اليوم في ايطاليا واليها نُسبت هذه العائلة ولكنها ضُمت الى فرنسا في سنة ١٨٦٠ . واشهر ما في المدينة متحفها وكنيستها وعلى الاخص القصر الملكي الذي كان يسكنه آل سافوى لما كانت شمبيري عاصمة لامارتهم . وهي قائمة في وادٍ منفرج تحيط به جبال الالب من كل الجهات تكتنفها الاحراش والطبيعة من كل صوب . فكأنها جُعلت هناك للجمال والحب . وفوقها قمة

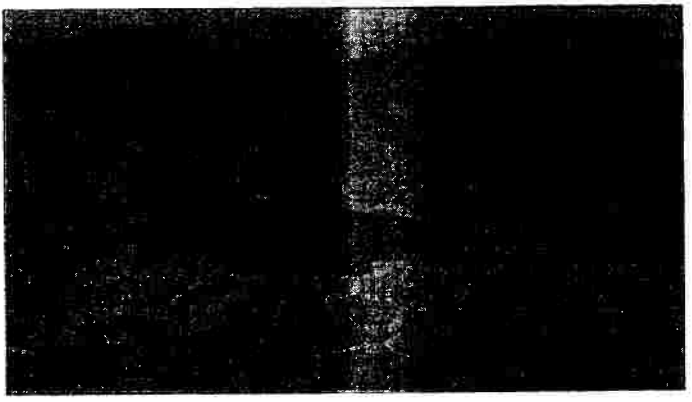

مدينة شمبيري Chambery

« جبل نيفوله » Nivolet نُصب عليها صليب علوّه ١٨ مترًا ولكنه يظهر فوق المدينة كأنه بقدر شبر لارتفاع الجبل اذ يعلو ١٥٥٨ مترًا عن سطح البحر. وبيت روسو فوق هذه البلدة الى شمالها وهو في وادٍ مشرف على البلدة مقابل جبل نيفوله (انظر يمين الرسم في الحرش)

قصتهما ليس الغرض في هذا الفصل ان نبسط ترجمة روسو ونذكر شيئًا من تاريخ حياته. فان فيلسوفًا كبيرًا كهذا الفيلسوف الذي ازعج الارض كلها بمبادئه وافكاره لا يمكن ان يترجَم في فصل او فصلين. فنرجئ الآن ترجمته وتلخيص مبادئه وكتبه الى فرصة اخرى. وسنبتدئ ذلك في الجزء التالي اذ نلخص فيه ما كتبه عن مدام دي وارين ومعيشته معها في شمبيري. اما الان فنقتصر على ما يلي لاطلاع القارئ على لمحة من قصتها

كانت مدام دي وارين سيدة من النبلاء يُعرَف ذلك من اسمها. وكانت بروتستنتية فلما تركت مذهبها واعتنقت الكاثوليكية جعل لها الملك راتبًا تقبضه شهريًا وكانت تعيش في بلدة شمبيري لما قصدها صاحبنا روسو. ولسنا نصف هذه المرأة لان روسو في كتاباته سيصفها وصفًا دقيقًا وانما نقول انها لما كانت متزوجة اتخذت رجلاً يدعى المسيو دي تافل معلماً يعلمها الفلسفة. وكانت شديدة الامانة لزوجها فلما رأى هذا المعلم الشقي (كما يسميه روسو في كتابه) تدرعها بدرع الامانة الزوجية وعجزه عن افساد قلبها لاستمالتها واجتذابها اليه عمد الى طريقة اخرى تمكّنه من مراده فصار يصدم « عقل » المرأة بدل صدمه « قلبها » اي انه صار يلقي عليها مبادئ تحلّ مبادئها وتفسد عقلها حتى تمكن منها وابطل اعتقادها القديم في الواجبات الزوجية والعائلية مما لا محل لبسطه هنا

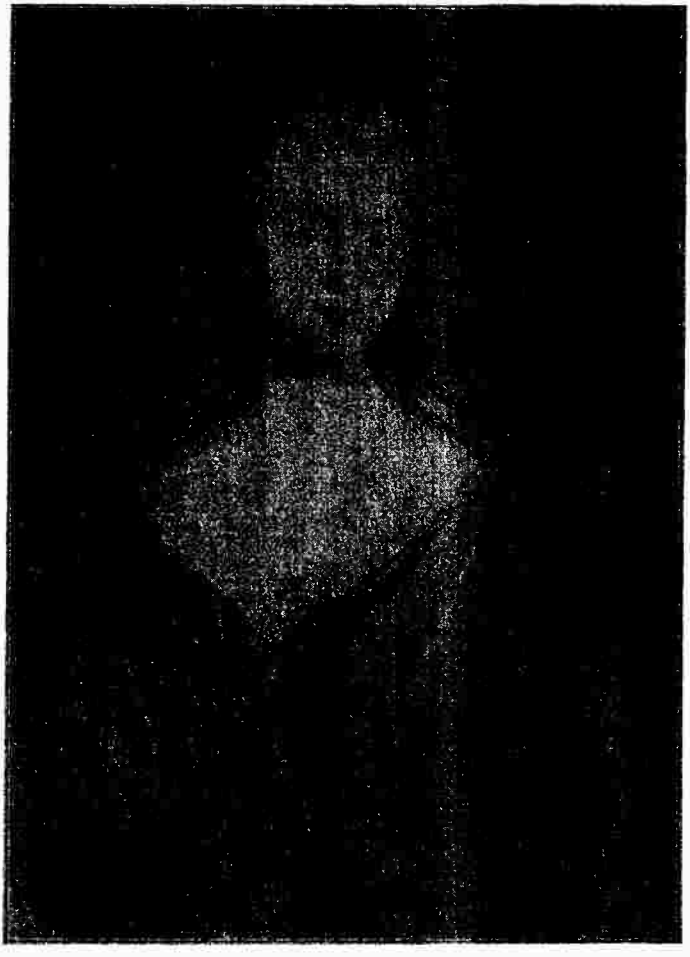

مدام دي وارين

ولما عرف روسو مدام دي وارين كان في السابعة عشرة من عمره وكان ضعيفاً ضئيلاً طاردته المصائب واذله الفقر. فانه استُخدم اولاً في محل « مسجّل » ثم عند نقاش وكان فكره المطلق ورغبته في المطالعة يزهدانه بهذه الصناعة . ففرَّ من جنيف مسقط رأسه (١) واستخدم في منازل الكبار كخادم ودخل احد الاديرة ليصير راهباً . وما زال تائهاً طريداً حتى

(١) لم يكن روسو فرنسوياً بل جنيفياً وقد قال عن نفسه في تاريخ حياته انه تلقى حب الحرّية والجمهورية من تراجم فلوطرخس وجمهورية جنيف وطنه

عرّفه بعض الذين اهتموا به الى مدام دي وارين وارسلوه اليها لتسعى في نفعه . فادخلته مدام دي وارين بيتها واهتمت لامره فوصل روسو الى يدي مدام دي وارين ونفسه مشوّهة تشويهاً قبيحاً ذكره في كتبه ولكن جسمه ومنظره كان لطيفاً مقبولاً . ورسمه

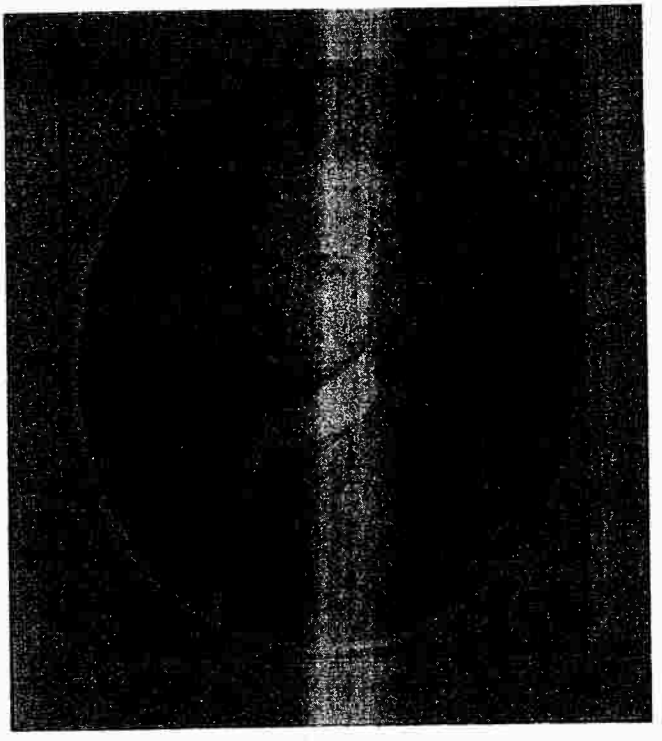

جان جاك روسو في شبابه

الموجود في هذا الفصل هو رسمه بعد دخوله الى بيتها . وكان لمدام دي وارين خادم يدعى (كلود آنه) رفعته من درجة الخدمة الى درجة الصديق وعهدت اليه زمام بيتها . فلما دخل روسو الى البيت ادرك ما كان بينها وبين وكيل اشغالها من « الصلات الخصوصية » وكان بيت مدام وارين مقصداً لاكابر الرجال والقواد الذين كانوا يمرّون بشمبيري في اثناء الحروب بين فرنسا وسردينيا والامارات الايطالية لان شمبيري على الحدود بين فرنسا وايطاليا . وكانت مدام وارين تعيش في بيتها بين اولئك الاقوام الذين يترددون عليها لخطبة صداقتها ووِدادها معيشة رجل لا معيشة امرأة . وقد اعجبها روسو ولطفه الصبياني كما اولع هو بها اول ما وقع نظره عليها . وكان يدعوها « ماما » Maman اي « يا اماه » تحبباً

وتلطفاً فتدعوه هي Mon petit « يا صغيري » . وقد بقي يسميها كذلك حتى في كتبه . فلما رأت مدام وارين ان روسو بلغ العمر الذي يُخشى منه على الشاب ان ينظر الى الجنس الثاني نظراً مخصوصاً جاءته واقترحت عليه اقتراحاً غريباً . قال شاتوبريان الكاتب المشهور : ان روسو رغبةً منه في ان يكتب صفحات متناهية في البلاغة والجمال قد فضح امرأة شرّ فضيحة بما كتبه وفصّله عنها

ومن هذا الحين عاش الفتى روسو مع مدام دي وارين معيشة الزوج مع زوجته . ولما توفي كلود آنه اصبح الفتى روسو صديقها الوحيد

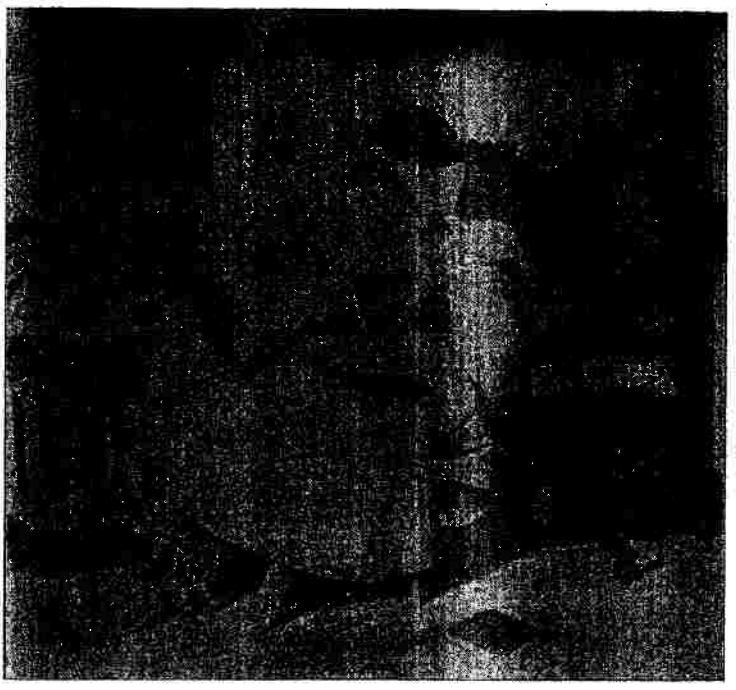

روسو ومدام دي وارين في القاعة

وكانت مدام دي وارين امراة قد اعتادت التبذير واثقلتها الديون فلشدة حاجتها الى المال صارت تشتغل « بالكيمياء القديمة » نعني انها كانت تطلب تحويل المعدن الدنيء معدناً ثميناً . فصار بيتها في شمبيري مقصداً لجميع المشعوذين الذين يدّعون هذا العلم . فرغبة في الفرار منهم ومن سائر القوم الذين كانوا يزعجون البيت وسكانه اقترح روسو على خليلته ان يخرجا من البلدة ويعتزلا الناس في بيت بين الاحراش خارجاً عنها . فذهبا واستاجرا

بيتاً فوق شمبيري في الخلاء والفضاء بين الاحراش والطيور. وقد اقام روسو فيه مع مدام دي وارين من سنة ١٧٣٦ الى سنة ١٧٤٠ اي اربع سنوات ذاق في اثنائها السعادة الحقيقية اي المعيشة بسذاجة وراحة في حضن الطبيعة مع نفس كريمة يحبها وتحبه

تاثيرها عليه ان الذين اكرموا بيت روسو ومدام دي وارين هذا الاكرام لم يكرموهما لما كان بينها وبين فيلسوف جنيف من الحب والوداد فان هذا عادي يكون كل يوم بين الكتاب والشعراء وربات الظرف والجمال. وما برح الكتاب والشعراء خصوصاً مَن كان منهم ارق احساساً وادق شعوراً اكثر الناس تعرُّضاً لهذا الداء الذي يسمونه حباً. وانما اكرموا البيت وصاحبته لما كان لهما من التأثير العظيم على عقل روسو وقلبه. فالوحدة والطبيعة غرستا فيه منذ شبابه بذور الدعوة للرجوع الى الطبيعة المشحونة كتبه بها في كل سطر من سطورها. واخلاق مدام دي وارين الكبيرة كبرت اخلاقه وغيرت مشربه فبعد ان كان فتى منكمشاً منقبضاً منخفض الراس لاعتياده ذل الخدمة معتاداً السرقة في بعض الاحيان كما قصَّ ذلك في تاريخ حياته واذا به قد اصبح رجلاً « بكل معنى الكلمة ». وقد قصَّ في تاريخه عدة قصص بهذا الشان اليك واحدة منها. لما توفي كلود آنه وكيل اشغال مدام دي وارين بكى عليه روسو بكاءً شديداً لانه كان يحبه .. ولكنه في اثناء بكائه فكَّر انه قد ورث ثوبه الاسود الجميل فاظهر لمدام دي وارين سروره بذلك. فصعقت مدام دي وارين لهذه العاطفة الرديئة فحولت وجهها وصارت تبكي. فانطرح روسو على عنقها. قال: ومن هذا الحين خرجتْ الى الابد كل عاطفة دنيئة من نفسي

فيا سحر الحب والوداد انك لتفعل في النفوس ما لا تفعله كل قوات العالم

زيارتي بيت روسو وصلت الى شمبيري في منتصف الليل فنمت بقية الليل في « اوتل البوسطة » ومنذ وطأت قدمي ارض شمبيري صرت احسُّ بحمّى جان جاك تدبّ في مفاصلي. فقلتُ غداً ساري البيت الذي نام فيه جان جاك واتفيأُ الاشجار التي تفيأها وادوس الارض التي داسها واسمع صوت الاطيار والانهار التي سمعها. فلم انم الا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ولما انشق حجاب الفجر نهضت مسرعاً فاستاجرت مركبة (١) وسرنا من شارع جان جاك روسو نحو الوادي والاكمة وراءه ويُصعد اليها في طريق مخططة سهلة. وكانت الساعة السادسة صباحاً والنسيم يداعب اغصان الحرش على جانبيّ والاشجار تظلماني في مسيري والطيور الغريبة الصوت الرخيمة الغناء تغرد

(١) الاجرة ٦ فرنكات ذهاباً وايابًا مع انتظار ٣٠ دقيقة امام البيت

فيها فوق رأسي تغريدًا حرّك عواطفي وهاج شجني . وكنت ساكتًا مبهوتًا مدة الطريق فكلمني السائق مرتين فلم اجبه الا اشارة . وبعد ٣٠ دقيقة انتهيت الى البيت

بيت روسو

يدعى (Les Charmettes) اي الفتان وسمي كذلك لان النظرة منه في الجبال والاحراش والبلدة تفتن الالباب

فلما صعدت الطريق الضيقة المؤدية اليه ووضعت قدمي في عتبة الباب احسست بقشعريرة في بدني . جان جاك جان جاك هوذا شخص من الف او من مليون اضرّته مبادئك وجاء يشكو ضرره لك . منذ ١٥ سنة كنت اتمنى زيارتك وهاءنذا في بيتك . ولا تسلني هل هذه الزيارة زيارة تثبيت ام زيارة وداع فانني جئتك ضجِرًا تَعِبًا من خدمة لا يجني صاحبها اذا اخلص النية فيها سوى الاضطهاد والعدوان

والبيت تحيط به حديقة من جانبيه . وامامه حديقة كبرى تزرع اليوم بقولاً . وهو مطوّق في وسطه بشجرة تسمى « لا كايسين » ذات زهر وردي يجعل للبيت هيئة غزلية جميلة . وعلى جداره امام باب الدخول بلاطة نُقشت عليها الابيات الفرنسوية التالية

Réduit par Jean-Jaque habité,
Tu me rappelles son génie,
Sa solitude, Sa fierté
Et ses malheurs et sa folie.
A la gloire, à la vérité,
Il osa consacrer sa vie,
Et fut toujours persécuté,
Ou par lui-même ou par l'envie. (1)

وهذه الابيات البديعة نظمتها على ما يُقال مدام دابيناي التي ورد ذكرها كثيرًا في تاريخ حياة روسو وقد نقشها وجعلها هناك هيرو وسيشل في سنة ١٧٩٢ عند ابتداء الثورة الفرنسوية

ولما قرعتُ الجرس المعلق فوق الباب جاءت حارسة المكان . وهي مكلفة في ذلك البيت من قِبل الحكومة باستقبال الزائرين وقبض اجرة الزيارة وقيمتها نصف فرنك عن كل شخص . والبيت طبقتان في الطبقة السفلى غرفتان الاولى غرفة المائدة في وسطها المائدة التي كانا يا كلان عليها وفي خزانة كبرى الى ما وراءها صحون عديدة كانوا يستعملونها . ووراء غرفة المائدة قاعة الاستقبال وفي وسطها مائدة عليها شيء كثير من الصوَر التي نشرناها في هذه المقالة ولا توجد في غير هذا البيت وهي تباع للزائرين . وبجانبها السجلّ الذي يقيد فيه الزائرون اسماءهم وعواطفهم . وفي الطبقة الثانية من البيت (مُصلّى) مدام دي وارين وهو مذبح للصلاة مزين بالايقونات والصور وبجانبه غرفتها وهي تشتمل على سريرها وكلة السرير ومراتها وغير ذلك . وان القطن المحشو به فراشها بادٍ للنظر لتقادم عهده . وارض غرفتها الخشبية قد اكلها السوس والأقدام فلا بدّ من تجديدها او سترها بطبقة خشبية بعد ١٠ او ٢٠ عامًا . والنظرة من نافذتي غرفة مدام دي وارين الى شمبيري وما حولها من الجبال والاحراش نظرة لم ارَ مثلها في حياتي كلها لا في قمة الاهرام ولا في اعالي الارز وصنين . وبجانب غرفة مدام دي وارين غرفة روسو وفيها سريره الجميل والمرآة التي كان ينظر فيها وجهه . ولم نصف هذه الغرف كلها لاننا اخذنا رسومها وسننشرها في جزء تالٍ

السجلّ وفكاهاته وكان في البيت سائحان غيري واحد انكليزي وواحد فرنسوي . فلما انتهيت من الزيارة طلبت سجلّ المكان لاقرأ فيه اسماء الزائرين

(١) ترجمتها — يا بيتًا سكنه جان جاك . انك لتذكرني روحه العظيمة ووحدته وكبرياءه ومصائبه وجنونه . فانه اجترأ على ان يجعل حياته وقفًا للمجد والحقيقة . ولذلك كان تارة يضطهده الناس حسدًا وتارة هو نفسه يضطهد نفسه

وما كتبوه . فهناك سجلان سجل هذا العام وسجل امتلأ في مدة ثلاثة اعوام . فتصفحتها كلها بدلالة المرأة حارسة المكان وهي سيدة متأدبة تحرس البيت هي وحماتها . ثم اخترت منها بضعة اسماء ونقلتها ولو اردت قراءتها كلها لاقمت في البيت اسبوعاً . واليك ما نقلته منها

رأيت في السجل توقيع المسيو « اناتول فرانس » احد رجال الاكاذيمية وهو أشهر كتاب فرنسا اليوم [1] وتحت توقيعه هذه الكلمات « الكرامة لروسو وبرجيره » والتاريخ ١٨ ابريل سنة ١٩٠٣ وبرجيره هو بطل كتابات اناتول فرانس . وفي صفحة اخرى توقيع المسيو ريشبين وتحته هذه الكلمات «وانا افتكر في اناتول فرانس» اي وقع وهو يفكر فيه تشبيهاً له بروسو . وهناك توقيع الكونتس دي نوايل الكاتبة الفرنسوية المشهورة وفوقه هذه الكلمات « يا عزيزي روسو . يا عزيزي جان جاك . انت الرجل الذي كنت اكثر الناس حباً له والذي اثنيت عليه واحتفلت بأمره اعظم احتفال تحت اسماء متعددة » تعني اسماءها التي تستعيرها للكتابة . — وهناك توقيع بسيط « بول ياسينت لوازون ٢١ اكتوبر سنة ١٩٠٣ » وهو الكاتب المشهور الذي كان كاهناً فرنسوياً وترك الكهنوت . وتوقيع المسيو موريس بارس الذي جُعل في هذا العام عضواً للاكاذيمية الفرنسوية . والبارونة Kharuacé ولعلها اجنبية لا فرنسوية . وبين هذه التواقيع تواقيع لا تحصى . (٢) مقرونة بعضها بشعر ونثر اطول وابرد من ليالي الشتاء وبعضها كلام موجز كايجاز العلماء . وجميع ما قرأته منها انما هو تغزل وهتاف لصاحبي المكان . منهم واحد كتب يقول « هنا دماغ فرنسا مصدر الحس ودقة الشعور فزوروا هذا المكان زيارتكم لهيا كل العبادة » ولم اعثر الا على قادح واحد واليك ما كتب « اذا عادت فرنسا الى نفسها يوماً من الايام فانها

---

(١) ترجمنا له خطبة في الجزء العاشر السنة الرابعة

(٢) وجدنا بينها توقيعين بالعربية احدهما قريب لسعادة بطرس باشا غالي ناظر الخارجية في مصر . ولما ابتسمنا لقراءتهما قالت لنا حارسة المكان « هل المسيو يفهم هذه الكتابة الصينية » فضحكت ولم أجب . وبما ان حمامات اكس لا تبعد عن شمبيري سوى ساعة في القطار وكثيرون من افاضل المصريين يفدون كل عام على تلك الحمامات فغير بعيد ان الذين يذوقون الادب منهم يقصدون بعد اليوم شمبيري من حمامات اكس « ليأخذوا فيها حمّاماً من الشعر والادب والجمال الطبيعي »

ستنقل عظام روسو من البانثيون وتطرحها في نهر السين » — قلت فتأمل البون الشاسع بين هذا الرأي والرأي الذي نقدمه واحكم بعد ذلك في ما يجب على البشر من التأني والتساهل والعقل ليعيشوا معاً بسلام ووداد دون ان يكون لتلك الخلافات العظيمة في الراي والمعتقد تاثير عليهم

ولما اطبقت السحل كتبت فيه بالفرنسوية اسمي واسم الجامعة ووضعت بجانبهما هذه العبارة « حين مرورسي قاصداً اميركا » ولما كتبتها سمعت صوت بلبل يغرّد على الشجرة وراء النافذة . ذلك ان الفصل فصل ربيع وكان روسو لا يحب شيئاً في الربيع هناك مثل تغريد البلابل . فخيل لي ان بلابل روسو حين كتبت تلك العبارة تقول لي « أقم هنا ولا ترحل » فابتسمتُ واجبتها في نفسي «هذا ممكن في آخر العمر لا في أوله»

ولما عدتُ من البيت الى المركبة التي كانت تنتظرني خارجاً كنتُ ممتلئ النفس غزلاً وشعراً . فاردت قطف وردة او زهرة من الحديقة فلم اجترىء على ذلك احتراماً للبيت . فخرجتُ وبحثت خارج البيت في الطريق عن زهرة احملها تذكاراً لزيارتي الاولى . فوجدت خارج باب الدخول زهراً ابيض جميلاً فمددت يدي وقطفت بضع زهرات منه ما زلت احفظها . فاصابت كفي حين مددتها نباتاً شائكاً بجانب الزهرة فشاكها وآلمها . فضحكت لانه خطر لي حينئذٍ هذا الفكر « جان جاك جان جاك . انك قضيت عمرك وانت تشكو الزمان والناس ومصائب الحياة . فاعلم الآن اننا في هذه الحياة المدنية الجديدة . التي كنت تحمل عليها حملات شديدة . والتي صار فيها « تنازع البقاء » بين الناس عبارة عن صراع بين وحوش عنيده . صرنا نجد الآلام والمتاعب حتى حين قطف الازهار التي نراها في طريقنا

وقد اقمت في شمبيري اربعة ايام . وزرت الاحراش والحقول حول البيت وقرأت للمرة الثانية في ظل اشجارها الظليلة ما كتبه روسو عن تاريخ حياته وإقامته في تلك الجنات وقصته مع خليلته مدام دي وارين وخليلات اخرى غيرها عرفهن بعدها . وموعدنا بنشر ذلك جزءٌ تالٍ

اقتراح على الادباء

يُقبل الجواب نظماً ونثراً

في هذا الجزء الصفحة (١٠) السطر ٢٥ في الحاشية الثالثة « مسألة عائلية اجتماعية » نقترح الجامعة على الادباء البحث فيها والجواب عنها نظماً او نثراً . ونشترط ان لا يتجاوز الجواب خمسة اسطر في الجامعة